القصص الديني

الحلقة الثانية
قصص السيرة

أيام الشدة

عبد الحميد جودة السحار

١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة
لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات
العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما في
السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت
الثرى ﴾ .

(قرآن كريم)

١

خرجَ عُمَرُ بن الخَطّابِ يومًا وهو يحمِلُ سَيفَه ، وسارَ وفِي وجهِه عزْم ، فقابلَه رجُل ، وقال له :

ـ أين تُريدُ يا عُمَر ؟

قال عمرُ فى غضب :

ـ أُريدُ محمَّدًا هذا الصَّابِئ ؛ الذى فَرَّقَ أمرَ قُريش ، وعابَ دينَها ، وسَبَّ آلِهَتَها ، فَأَقْتُلُه .

قال له الرجل :

ـ واللّه قد غرَّتْكَ نفسك يا عُمَر ، أترَى بنى عبدِ منافٍ تاركيكَ تمشى على الأَرض وقد قتلتَ محمَّدا ، أفلا ترجِعُ إلى أهلِ بيتِك ، فتُقِيمَ أمرَهم ؟

فقال عُمَرُ فى دَهَش :

ـ أىُّ أهل بيتى ؟

ـ أختُكَ فاطمة ، وابنُ عمِّكَ سعيدٌ زوجُها ، فقد والله أسلَما ، وتابَعا محمَّدًا على دينِه .

فرجَعَ عُمَرُ غاضِبًا إلى اختِه فاطِمةَ وزوجِها ، وكان عندَهما رجلٌ مسلم ، معه صحِيفةٌ فيها سورةُ طهَ يُقرِئُهُما إياَّها ، فلمَّا سمِعُوا حِسَّ عمر ، اختبأَ الرَّجُل ، وأخَذَتْ فاطمةُ الصَّحيفةَ ، فَجعلتْها تحت فخِذِها ، وسمِعَ عمرُ حين اقترب قراءَةَ القرآن ، فدخلَ على أخته ، وقال :

ـ ما هذه الهَينَمةُ التى سمِعت ؟

قالت له أُخته وزوجُها سعيد :

ـ سمِعتَ شيئا ؟

قال :

ـ والله لقد أُخبِرْتُ أنّكما تابعتُما محمَّدًا على دينه .

وضربَ سعيدًا زَوجَ أُختِه ، فقامت أختُه تمنعُ عن زوجِها ، فضربَها فسال دمُها ، فقالت له :

ـ نعمْ ؛ قدْ أسلَمنا وآمنّا باللّـه ورسولِه ، فاصنعَ ما بَدا لك .

نَدِمَ عمرُ على ما صَنَعَ بأخته ، وقال لها :

ـ أعطِيني هذه الصحيفةَ التى كنتم تقرءُون ، أَنظُرُ ما هذا الذى جاءَ به محمد ؟

قالت له أختُه :

ـ إنّا نخشاكَ عليها .

ـ لا تخافِى .

وحلَفَ لها بآلهتِه ليُردَّنّها إليها إذا قرأَها ، فطَمِعَتْ أختُه فى إسلامِه ، فقالت له :

ـ يا أخى إنّك نَجسٌ على شِركِكَ ، وإنّه لا يَمَسُّه إلاّ المُطَهَّرُون .

فقام عُمَر فاغتسلَ ، فأعطَتْه الصَّحيفةَ وفيها سورةُ طه ، فقرأها ، وقال :

ـ ما أحْسنَ هذا الكلامَ وأكرَمَه !

فلـمَّا سمِعَ الرجلُ الـذى اختَبـأ ذلـك ، خـرجَ مسرورا ، وقال لعمر :

ـ واللّه يا عمـر ، إنـى لأرجُو أن يكـونَ اللّـه قـد خَصَّـكَ بدعـوةِ نبيِّـه ﷺ ، فإنِّى سمِعتُـه أمـس وهـو يقول : اللهم أيِّدِ الإسلامَ بـأبى الحَكَـم بـنِ هشـام ، أو بعمرَ بن الخطاب ، فاللّهَ اللّهَ يا عُمَر .

فقال له عمر :

ـ فدلّنى على محمّد ، حتى آتِيَه فأُسلِم .

وذهبَ عُمَر يُعلِنُ إسلامَه .

٢

غاظَ قُريشًا دخولُ النّاسِ فى الدين الجديد ، فاتّفقَ ساداتُ قُريشٍ على قتلِ محمدٍ ﷺ ، فلمّا رأى أبو طالبٍ ذلك ، جمعَ بنى عبدِ المطّلِب ، وأمَرَهم أن يُدخِلوا رسولَ اللّه فى حِصنِهم ، وأن يمنَعُوه ممن أرادُوا قتلَه ، فدخلَ المُسلمون مع محمد ، ودخلَتْ خديجةُ معه . فلمّا عرَفتْ قريشٌ أن بنى عبدِ المطّلب قرّروا حمايةَ محمّد ، والدّفاعَ عنه ، اجتمعَ المشركونَ من قُريش ، واتّفقُوا ألاّ يُجالِسُوا مَن نصرَ محمّدا ، ولا يُبايعوهم ، ولا يتزوّجُونَ منهم ، وكتبوا بذلك عهدًا علّقوه فى جوفِ الكعبة .

وضيّق المشركونَ الحِصار على المسلمين ، فنَفِدَ ما كانَ عندَهم ، وخوَت بطونُهم ، وبكى صغارُهم

يطلبونَ الطعام . ومرَّت على المسلِمين ثلاثُ سنواتٍ عِجاف . وفى ذاتِ يوم دخَلَ النبىُّ على عمِّه أبى طالب ، وقال له : إن اللّهَ قد سلَّطَ الأَرَضَةَ على الصَّحيفةِ التى كتبَتْها قُريش ، وعَلَّقتْها فى الكعبة ، فأكلتها ، ولم تدَعْ فيها إلا اسمَ اللّه ، فقال له أبو طالب :

ـ أربُّكَ أخْبَرَك بهذا ؟

فقال رسولُ اللّه :

ـ نعم .

فقال أبو طالب :

ـ فَلِمَ نُحْبَس ؟

وخرجَ أبو طالبٍ إلى أشرافِ قُريش ، وقال لهم : إن اللّهَ سلَّط الأرضَة على الصَّحيفةِ الظالِمةِ فَلَحِسَتْها ؛ فذهبَ ساداتُ قُريشٍ إلى جوفِ الكعبة ، فوجدُوا الأَرَضَةَ قد أكَلَتِ الصَّحيفةَ ومزَّقتها ، فَرُفِعَ الحِصارُ عن المسلمين .

٣

لم تحتملْ خَديجةُ الاضطهادَ الذى لاقَته مع زوجها والمسلمينَ ثلاثَ سنين ؛ حاصَرَتهم قُريشٌ حتى جوَّعَتهم ، وعذبتهم ، ولم تكن خديجةُ تألَفُ مثلَ ذلك العذاب ، فلما عادت إلى دارِها مرضتْ ، فلَزِمَها محمَّدٌ ﷺ ، ولم يُفارِقها لحظة ، إنها آمَنت به لمَّا كذَّبه الناس ، وشجَّعته لمَّا لم يجد من يُشجِّعه ، وواسته لمَّا اضطهَدَه الكفار ؛ كانت له نِعمَ الزوجَة ونِعمَ المُعِين .

ومضى على مرضِها ثلاثةُ أيام ، وإذا بها تموتُ بين يديه ، فحزِنَ عليها حُزنًا شديدا ؛ كان يُحِبُّها حبًّا صادِقا ، فآلمه فَقدُها ، وأحسَّ عِظم الفجيعة فيها .

٤

كـان هـذا العـامُ عـامَ الأحـزان ؛ مـاتت خديجـة ، واشتكى أبو طالب فيه ، ولـمَّا رأى أشـرافُ قُريـشٍ شِدَّةَ مرضِ أبى طالب ، قالوا :

ـ إنَّ حمزةَ وعُمرَ قد أسلما ، وقد فشا أمـرُ محمَّـد فى قبائِلِ قُريشٍ كلِّها ، فانطلِقوا بنا إلى أبى طالب .

فذهبوا إليه ، وقالوا له :

ـ يا أبا طالِب ، إنَّك مِنَّا حيثُ قد علِمـتَ ، وقـد حَضَـرَك مـا تـرى ، وتَخَوَّفنـا عليـك ، وقـد عَلِمـتَ الذى بيننا وبينَ ابن أخيك ، فادعُه ، فخُذْ لنـا منـه ، وخُذْ له منَّا ، ليكُـفَّ عنـا ، ولنكُـفَّ عنـه ، ولِيدَعنـا ودينَنا ، ولِنَدَعه ودينه .

فأرسَلَ إليه أبو طالبٍ ، فجاء ، فقال له :

- يا بنَ أخِي ، هؤلاء أشرافُ قومِك ، قد اجتمعُوا إليك ليُعطُوكَ وليأْخُذوا منك .

فقال رسولُ اللّه ﷺ :

- يا عمِّ ، كلمةً واحِدةً تُعطُونَها ، تملِكُونَ بها العرب ، وتدينُ لكم بها العجم .

فقال أبو جهل :

- نَعمْ وأبيكَ ، وعشرَ كلمات .

قال :

- تقولون : لا إله إلاّ اللّه ، وتخلَعُونَ ما تعبُدون من دُونِه .

فقال بعضُهم لبعض :

- إنّه واللّه ما هذا الرَّجُلُ بمعطِيكُم شيئا مما تُريدون ، فانطلِقوا وامضُوا على دينِ آبائِكم ، حتى يحكُمَ اللّه بينكم وبينه .

ثم تركوه وتفرّقوا ، فقال له أبو طالب :

- واللّه يا بنَ أخي ، ما رأَيتُكَ سألْتَهم شَطَطا .

فطَمِع رسولَ الله فى أن يُسلِمَ عمُّه ، فقال له :

ـ أىْ عمّ ، فَأنتَ فقُلْها .

فقال أبو طالبٍ فى صلَف :

ـ يابنَ أخِى ، والله لولا مخافَةُ أن تظُنَّ قُرَيشٌ أنّى إنّما قُلْتُها جزَعًا من المَوت ، لَقُلْتُها .

وماتَ أبو طالب ، فحَزنَ عليه محمّدٌ ﷺ ، فقَدْ فَقَدَ الذى كان يمنعُ عنه أذَى قريش ، بعدَ أن فَقَدَ الزَّوجةَ الرَّءُوم ، التى كان يجدُ عندَها الرَّاحة والأمن .

٥

ماتَ أبو طـالب ، فاشتدَّتْ أذِيَّةُ قُريش لرسولِ اللّـه ، ففكّـر فـى أن يخرُجَ مـن مكّـةَ إلى الطّـائِف ، يلتمِسُ مـن أهلِهـا أن ينصُرُوه ، ويمنعُوا عنـه أذِيَّـةَ قومِه ، ورجا أن يدخُلُوا فـى الإسلام ، فلـمَّا بَلَغَهـا ذهَبَ إلى ثلاثـةِ إخوة ، كـانوا سـادَةَ ثقيـف ، وهـى القَبيلةُ التى تـنزِلُ الطّـائِف ، وجَلَـسَ إليهِـم ، وأخَذَ يدعُوهُم إلى الإسلام ، فقال له أحَدُهم مستهزِئا :

ـ أما وَجَدَ اللّه أحدًا يُرسِلُه غيرَك ؟!

وأخَذُوا يسخَرُونَ منه ، فقـامَ مـن عِندِهـم ، وقـدْ يئس منهم ، فلم يترُكوه يعودُ مـن حيـثُ جاء ، بـل أمَـرُوا عبيدَهـم أن يَسُبُّوه ، وأن يَرْمُوه بالحِجـارة ، فقعَـدُوا لـه صَفين علـى طريقـه ، فلـمَّا مـرَّ أخَـذُوا يرمونَ رِجْلَيه بالحجارة ، لا يرفَعُ رِجْلَيهِ ولا يضَعُهما

إلاَّ رَمَوهُما بالحِجارَة ؛ فسالَ الدَّمُ من رِجلَيه ، وصبَرَ على الألَمِ الشَّديد ، حتى إذا ابتعَدَ عنهم وصَلَ إلى نخلةٍ ، جلسَ فى ظِلّها يستريح ، ورفعَ عينيه إلى السَّماء وراح يدعو :

— « اللَّهمَّ إليكَ أشكُو ضعفَ قُوَّتى ، وقِلَّةَ حيلَتى ، وهوانِى على النَّاس ، يا أرحمَ الرَّاحِمين ، أنتَ ربُّ المُسْتَضعَفِين ، وأنتَ ربِّى ، إلى مَن تَكِلُنى ؟ إلى بَعيدٍ يتجهَّمُنى أم إلى عَدُوٍّ ملَّكتَه أمرى ؟ إن لم يكن بك غَضبٌ علىَّ فلا أُبالِى ، ولكنَّ عافِيَتك هى أوسَعُ لى ، أعوذ بنورِ وجهكَ الذى أشرَقَتْ له الظُّلمات ، وصَلَح عليه أمرُ الدنيا والآخِرة ، من أن تُنْزِلَ بى غَضَبَكَ أو يَحِلَّ علىَّ سَخَطُك ، لك العُتْبَى حتى تَرضَى ، لا حولَ ولا قُوَّةَ إلاّ بك » .

ورأى رجُلانِ ما حَلَّ به ، فَرَقَّا له ، فَدَعَوا غُلاما نَصرانِيًّا يقال له عَدَّاس ، وقالا له :

ـ خذْ قِطْفا من هذا العِنب ، فضَعْه فى هذا الطَّبق ، ثم اذهبْ به إلى ذلك الرَّجُل ، فقل له يأكُلْ منه .

أخَذَ عَدَّاسٌ قِطْفًا من العنب ، وذهَبَ إليه ، ووضَعَ أمامَه الطَّبَق ، فمدَّ رسولُ اللّه يده ، وهو يقول :

ـ باسمِ اللّه .

فنظرَ إليه عَدَّاسٌ ، وقال :

ـ واللّه إنَّ هذا الكَلامَ ما يقولُه أهلُ هذه البلاد .

فقال رسول اللّه :

ـ ومن أهلِ أىِّ بلادٍ أنتَ يا عَدَّاس ؟ وما دينُك ؟

ـ نصرَانِىّ ، وأنا رجُلٌ من أهلِ نِينَوَى .

فقال رسول اللّه ﷺ :

ـ من قريةِ الرجُلِ الصالح يونُسَ بن مَتَّى .

فقال عَدَّاسٌ فى دَهَش :

ـ ما يُدْرِيكَ ما يونُسُ بنُ مَتَّى ؟

ـ ذلكَ أخى ، كان نَبِيًّا وأنا نبىّ .

فأكَبَّ عَدَّاسٌ على رسُولِ اللّه يُقَبِّـلُ رأسَـه ويديـه وقَدَمَيه .

وانصَرَفَ رسولُ اللّه إلى مكّةَ وهو صابِر ، يحتَمـلُ الأذى دونَ ضَجَـر . كـان يعلـمُ أنَّ بعـدَ الشِّـدَّةِ الفَرَج ، وأنَّ مع العُسْرِ يُسرًا .